المحاضرة الأولى: النزعة القبلية في الشعر الجاهلي.

تعد القبلية بالنسبة للفرد الجاهلي هي الوطن والانتماء وإليها ينتسب فيقال "قبيلة طي, قبيلة مضر, قبيلة معبد".

وأساس الانتماء القبلي هو النسب, فأفراد القبيلة هو عبارة عن جماعة لينتمون لأصل واحد "ولها نسب مشترك يتصل بأب واحد هو أبعد الآباء والجد الأكبر للقبيلة فالرابط الذي يربط بين أبناء القبيلة, ويجمع شملها, ويوحد بين أفرادها هو الدم أي النسب, والنسب عندهم هو القومية ورمز المجتمع السياسي في البارية[1]

فرابطة النسب هي أهم ركيزة يقوم عليها النظام القبلي, فعليه يجتمعون وبسببه يتقاتلون ويتأثرون "لذا تحمل النظام القبلي عبئا ثقيلا في الدفاع عن الأفراد, حيث كانت القبيلة نهت بمجموعة النفع يلحق بأفرادها من أذى والثأر لقتيلها, حتى وإن أدى إلى خوض حرب طويلة رغم ذلك لم تكن تسمح لأفرادها بالخروج عن نظامها ومرجعيتها"[2]

فالقبيلة هي عبارة عن إدارة لمجموعة من الأفراد تجمع بينهم رابطة الدم بصفة الى لذلك كان الفرد العربي يهتم بنسبة ويدافع عنه.

ويقول مالك بن نبي "فالرابطة القبلية قد ظلت وحدها الرابطة التي توحد بعض الرجال فيما يشبه وحدة رسالة, غير أن هذه الرابطة لم تكن بكافية لتأهيل شعب ليؤدي رسالة تاريخية, وإن كانت أهلته للقيام برواية حماسية رائعة, لكن التاريخ يقرر أن الشعب الذي لم يقم برسالته, أي بدوره في تلك السلسلة ما عليه إلا أن يخضع ويذل"[3].

---

[1] علي جواد: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام, دار الملايين, بيروت, دط, 1978, ج4, 314.

[2] برهان الدين دلو, جزيرة العرب قبل الإسلام, دار الفراي, بيروت, ط1, 1989, ص153

[3] مالك بن نبي, شروط النهضة, دار الفكر, بيروت, لبنان, دط, دت, ص

ويذهب إلى خلدن للتوسيع في مفهوم القبيلة إلى "العصبية هي العنزة على ذوي القرى وأهل الأرحام أن يثالهم ضيم أو تصيبهم هلكة, وتكون العصبية بين أهل النسب الواضح ومن مظاهرهم أي تزوج من نساء منهم أو تزوجوا هم من نسائه أو يسبب إلهم بالولاء أو الحليف[1].

مفهوم العصبية:

يعود أصل كلمة العصبية إلى لفظ "العصب" ويعني الشد والطين والتي والعصابة: العمامة وكلما يعصب به الرأس وعصبة الرجل: بنوه وقرابته لأبيه[2] أما العصبة والعصابة فهم جماعة من الناس, وقيل إنهم ما بين العشرة والأربعين وقيل غير محدد بعدد, وإعصوصب القوم معناه أنهم صاروا عصابة[3] قال تعالى "ونحن عصبة" سورة الكهف.

فمن خلال هذه التعاريف يتجلى لنا أن مفهوم العصبة يقوم على الدفاع والنصرة وهمية بين أفراد القبيلة.

اصطلاحا:

جاء في تعريف العصبية عدة تعاريف بغية تحديد هذا المصطلح الفضفاض عرفها الجابري بقوله "رابطة اجتماعية سيكولوجية شعورية ولا شعورية معا, تربط أفراد جماعة ما قائمة على القرابة ربطا مستمرا, يبرز ويشتد عند ما يكون هناك خطر يهدد أولئك الأفراد كأفراد أو كجماعة"[4].

فالعصبية عبارة عن هور متطور للروح القبلية, دون أن تصل إلى مرتبة الروح القومية, على أنها عبارة على السلطة السياسية في المجتمعات القبلية.

ويحمل كل هذه التعاريف د/خالد بن عبد الرحمان الجريسي بأنها رابطة الدم أو تكاتف, اجتماعي أو تضامن قبلي, فهي تبور في مجملها حول معنيين رئيسيين "الاجتماع, والنصرة", فهما يمثلان صلب

---

[1] ابن خلدون, المقدمة, تح: عبد الله الدرويش, دار يعرب, دمشق, ط1, 2004, ص256-258.

[2] ينظر: ابن منظور, لسان العرب, دار صادر, بيروت, لبنان, ط6, 2008, ج10, ص166.

[3] الفراهيدي, العين, دار الكتب العلمية, بيروت, لبنان, ط1, دت, ج3, ص16.

[4] محمد عابد الجابري, فكر ابن خلدون, العصبية والدولة, ص168.

العصبية, ومع أن العلماء والكتاب قد ذكروا للعصبية تعريفات متنوعة إلا أنها لا تخرج في مجملها عن هذين المعنيين سواء أكان ذلك الاجتماع والتناظر حقا أم لا"[1].

ونجمل هذا المعنى للعصبية في النقاط التالية:

- أنها شعور قوي بالهوية القبلية, وولاء الفرد لقبيلته والتماسك معهم عند حدوث مشاحنات وصراعات كما أنها تناصر أفراد قبيلة ما واجتماعهم على الباطل غالبا ضدقوم غيرهم.
- أنها شعور التماسك والتضامن بين من تربطهم رابطة الدم, وهي مصدر القوة السياسية والعسكرية الذي يربط بين أفراد القبيلة.
- أنها شعور الفرد بأنه جزء لا يتجزأ من عصبيته الي تنتمي إليها, بل هي استعداد دائم في نفس الفرد يدفعه إلى تجسيد هذا الانتماء إلى عصبيته بفنائه فيها كليا.
- غريزة الدفاع الكامنة في كل كائن مادي أو معنوي بصرف النظر عن العدالة من عدمها, ما يجعل الفرد يحس بأنه مدين في كل شيء عنده إلى قبيلته فهي التي جمعته وترعرع بين ظهرانيها حتى صار رجلا فكان إلزاما عليه أن يخلص لها ويتفانى في الدفاع عن شرفها[2].

فالعصبية هي ذلك الشعور بالانتماء المطلق للقبيلة فالفرد العربي ابن قبيلته منصهر فيها, يعادي من تعاديه القبيلة ويصاحب ويسالم من تتانمه.

العصبية القبلية في الشعر العربي:

1- الفخر بالأنساب: والنسب يقصد به تلك الرابطة الأساسية التي تجمع بين أفراد القبيلة, ولعل أشهر بيت قول زيد بن الصمة:

وما أنا إلا من غرية إن غوت ** غويت وإن ترشد غربة أرشد[1]

---

[1] خالد بن عبد الرحمان الجريسي والعصبية القبلية في العصر الجاهلي, مؤسسة الجريسي, السعودية, دط, دت, ص26-27.

[2] ينظر: ميمون يوسف, طعام خفيظة, العصبية القبلية في الشعر العربي القديم (مظاهرها في الشعر الجاهلي) مقال بمجلة أنسنة للبحوث والدراسات, ج10, ع2, 2019, ص163-164.

يقول شوقي ضيف "فغية ورشده مرتبطان بعشيرته غربة فإن ضلت ظل معها وأمعن في ضلاله وإن اهتدت اهتدى وأمعن في هذا"[2].

ومن صور الحرص الشديد على النسب والاعتزاز به قول معاوية بن مالك:

إني أمرؤ من عصمة مشهورة ** حشد لهم مجد أشم بليد

ألفوا أباهم يشيد وأعانهم ** كرم وأعمام لهم وجدود

إذ كل حتى نابت بأروجة ** نبت العضاة فماجد وكسيد[3]

فالشاعر يبين انتماء بقومه ورفعتهم بين القبائل لعزهم وقوتهم وهذه المنعة والعزة متوازنة من الأجداد وحفظها الآباء والأعمام إلى أبنائهم فهي الشجرة.

ولعل قصيدة المعلقة لعمرو بن كلثوم لدليل ساطع للتعاظم لفخر أبا هند فلا يعجل علينا وأنظرنا نخبرك لقيا

بأنا نورد الريات بيضا ** ونصد رهن حجرا قدروين

إلى قوله "إذا بلغ الفطام كنا رضيع ** تحركه الجبابرة ساجدينا

وريثا المجد قد علمت معد ** يطاعن دونه حتى يبينا[4]

2- التحريض والفتن: وهو الشعر الذي يحرض على القتال والحث عليه, وفيه دعوة صريحة للحرب والقتل لكن لا يكون فيه الشاعر أحد أفراد القوم والجنود, كما فعل أوس بن حجر حين قام بتحريض النعمان بن المنذر على بني حنيفة لأن شعر عمرو السحمي قبل المنذر, وأدى هذا التحريض إلى عزو النعمان لهم وقتلهم وسبيهم فقال:

نبئت أن بني سحيم أدخلو ** أبياتهم تامور نفس المنذر[1].

---

[1] الأصمعي, الأصمعيات, دار بيروت, لبنان, ط1, 2002, ص121.

[2] شوقي ضيف, العصر الجاهلي, دار المعارف, مصر, ط2, دت, ص61.

[3] المفضل الضبي, المفضليات, تح: أحمد شاكر وعبد السلام هارون, دار المعارف, القاهرة, ط6, دت, ص255.

[4] عمرو بن كلثوم الديوان, دار الكتاب العربي, بيروت, لبنان, ط1, 1991, ص75.

3-الأخذ بالثأر كان المجتمع الجاهلي قائما على الغزو والحروب وهذا ما تخلقه من قتل وسبي, كان الجاهليون يدعون للأخذ بالثأر ممن اعتدى عليهم وإلا بعد ذلك نقيصه وضعفا لذا كان الفرد العربي "يشير في نفسه مشاعر الحقد والكراهية والانتقام فهو يحاول الثأر من الغالب والقاتل متى تهيأت له الظروف وحتى وجد الفرصة سانحة للإنقاض عليه إنقاذ الكرامة [2].

وظاهرة الثأر ظاهرة ارتكزت على معتقد خرافي في شائع في الجاهلية اذا زعموا أن الإنسان, إذا قتل ولم يطالب بثأره خرج من رأسه لطائر ينتمي الهامة, وصاح على قبره استقوني استقوني إلا أن يطلب بثأره:

يقول ذو الأصبع العدواني:

يا عمرو لا تدع تشتمي ومنقصي ** أضربك حتى تقول الهامة القوي

ومن حور الثأر في العصر الجاهلي:

أ- الثأر لأب والجد:

يقول قيس بن خظيم

ثأرت عديا والخطيم ولم أضع ** وصية أشياخ جعلت إزاءها

طعنت ابن عبد القيس طعنة ثأر ** لها نفذ لولا الشعاع أضاءها[3]

فالشاعر قد ثأر لأبيه وحده من القتلة, وحتى يشفى غليله ويطفئ النار التي بداخله لكل بالقتلة.

ب- الثأر الأخ:

يقول الزير سالم في الثأر لأخيه كليب من قاتليه

---

[1]ميمون يوسف, طعام حفيظة, العصبية القبلية في الشعر العربي, ص167.

[2] نوري حمودي القيسي, الفرسية في الشعر الجاهلي, مكتبة النهضة بغداد, ط1, 1964, ص113.

[3] محمد بن قاسم الفاسي, عنوان النفاسة في شرح الحماسة, دار الكتب العلمية, بيروت, ط1, 1971, 16-20.

خذ العهد الأكيد علي عمري ** بتركي كل ما حوت الديار

ولست نجالع درعي ويسقي ** إلى أن يخلع الليل النهار[1]

ويقول دريد بن الصمة يرقي إخوته ويخاطبهم أنه سيثأر لهم ولو طال الزهر ودامت الحرب

أبي القتل إلا آل صمة افهم ** أبوا غيره والقدر يجري على القدر

فإما ترينا ما تزال دماؤنا ** لدى واثر يشفى بها آخر الدهر[2]

موقف الإسلام من العصية القبلية:

بعد مجيء الإسلام ودعوته إلى الأخوة والمحبة ودفع الأخلاق السيئة لتتآلف القلوب ولا يفخر البعض عن البعض نسبة بين الله تعالى أن أصل الناس واحد قال سبحانه "يا أيها الناس إنا خلفناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارف إن أكرمكم عند الله أتقاكم" الحجرات13.

قال صلى الله عليه وسلم "إن أباكم واحد وإن دينكم واحد أبوكم آدم وآدم خلق من تراب"[3].

وبيان أنه لا أفضلية في النسب قال تعالى: "فإذا نفخ في العصور فلا أنساب بينهم يؤمئذ ولا يتساءلون" المؤمنون101.

وقال صلى الله عليه وسلم "لافضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى إن أكرمكم عند الله أتاكم"[4] ففي هذا دعوة إلى الأخوة الإيمانية الصادقة بعيدة عن العصبية والكراهية, ولذا ألف عليه السلام بين المهاجرين والأنصار وآخر بينهم لإعطاء صورة سمحة عن الإسلام بدعوة الأخوة ولذا جاءت الأخبار في النهى عن التعصب المذموم ونذكر من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم "إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يبغي أحد على أحد ولا يفخر أحد على أحد".

---

[1] المهلهل, الديوان, الدار العالمية, دط, ص34.

[2] قيس بن الخظيم الديوان, مكتبة, دار العرونة, القاهرة, ط1, 1962, ص145.

[3] الألباني السلسلة الصحيحة, ج6, ص451.

[4] المصدر نفسه, ص313. ومسند أحمد (23885).

وقال أيضا "ليس منامن دعا إلى عصبية, وليس منا من قاتل على عصبية, وليس منا من مات على عصبية"[1].

ففيه التحذير الشديد من العصبية الجاهلية المقيته التي تفاخر بالبيت للاستعلاء والغطرسة والظلم والجوار, لذا أكد عليه السلام على محاربتها لفسادها في المجتمع وأضعافه, كما أخبر أنها ستبقى "أربع في أمتي من أصل الجاهلية, لا يتركونهن: الفخر لأحيان والطعن في الأنساب والاستسقاء بالنجوم, والنياحة[2]

يقول خالد بن عبد الرحمان الجريسي "وبما أن العصبية الجاهلية كانت بمثابة الأساس للأعراق القبلية السائدة آنذاك وكارفت في الوقت نفسه من أسباب الفرقة والتقاتل بين الناس لذا ركز الرسول –صلى الله عليه وسلم– عليها وحاربها بكل قوة ودون هوادة وحذر منها وسد منافذها لأنه لا بقاء للكدين العالمي ولا بقاء للأمة الواحدة مع هذه العصبيات, ومصادر الشريعة الإسلامية زاخرة بإنكارها وتشنيعها, وما أكثر النصوص في ذلك[3].

---

[1]خالد بن عبد الرحمان الجريسي العصبية القبلية من منظور إسلامي, ص117.

[2]مسلم, الصحيح, 934.

[3] خالد بن عبد الرحمان الجريسي, العصبية القبلية من منظور إسلامي, ص43.